فكـــرة العـــود الأبـــدي عند نيتشـــه.

د . عبد الله محمّـــد الشـــاوش ـ كليـــة التربية يفـــرن ـ جامعة الزنتان .

الملخص:

مـــن المفيد القـــول أن نيتشـــه اسـتطاع الوصـــول إلى تفسيرات مختلفة للعود الأبـــدي على أنه القانـــون الطبيعي العنيد ، ونقطة تحـوّل في التاريـــخ ، وأعلـى درجات الحتمية والفعل الحـــرّ الخلاق الذي تمنحه الأبدية للإنسان ، والحـق أن العودة الأبدية ما هـــي إلا تعبير عن فلسفة نيتشه بأســـرها ؛ بل هي مدار فلسفته المعبرة عن أعماق أفكاره كلها ، وذلك على الرغـــم من أنها تفتقر إلى البناء التصوري المحكم ، والمعالجة المنطقية المحدودة ، ومع ذلك فهي تبدو وكأنها نبوءة معتمة أو ســـر مظلم يحاول الكشف عنه ، إلا أن موقف نيتشه حيال فكـــرة العود يبدو أنه كان متناقضا ، حيث تحدّث عن هـــذه الفكرة على أنها أثقل الأحمال ، وعـــن كيفية تحملها ، كما تحدث نيتشه من ناحية أخـــرى عـــن العود على أنه (الفكـــرة المنتصرة) وعلى الشـعور المـرح الـذي تحققه هذه الفكرة لمن يتحملونها ، وما يدل على عجـز نيتشه عن التعبير عن هـــذه الفكرة هو عجز الثرات الفلسفـــي الذي يقف على أرضه ، فهو يريد أن يهدم الميتافيزيقا ، ومع ذلك لم يـــزل مقيدا بها من خلال ارتباطه بوسائلها ومقولاتها ، وهو يحاول التعبير عن شـــيء لا اســـم له حينما يفكّر في العود الأبدي ليصبح العالم كله مشكلته الرئيسة ، وهذا يشـــير إلى إن من يكون رائدا يكون هـــو الضحية دائما ، وهـــو هنا رائد الفكـــر الذي يتجاوز الأشياء كلها ، ويحاول بما يستطيع إدراك العالم بكليته ، إلا أن نيتشه قد بلـغ في تصوره للعود حدا لا يمكن التعبير عنه في نظره .

المُقدّمـــــة :

الناظـــــر في فلسفة نيتشه يلاحظ أن فكـــرة واضحة قد راودته عن كتاب العصور شديدة البأس يدعونه بالإلهام ، وهـــذا في أغلب الظـــن غير ممكن ، وذلك بأنه إذا ظل فينا من روح الخرافـــة أقلها ، فلا يسعنا تجنّب هـــذا الانطباع بأننا تجسيد للقوى العليا والناطقون باسمها وواسطتها ، وأن فكرة الوحـــي إذا قصدنا بها الظهـــور المفاجئ لأمـــر يـــراه أحدهم ويسمعه بوضوح ودقة يفـــوقان الوصف ، فيقلب كل شـــيء لدى الإنسان ، ويهزه حتى الأعماق ، إن فكرة الوحـــي هذه

توافـــق واقعة صحيحة ، فالمـــرء يسمع ولا يبحث ، يأخـــذ ولا يسأل عمن يعطي فتظهر الفكـــرة بســـــرعة وتفرض نفسها بالضـــرورة بشكلها النهائي ، وكل ذلك يجـــرى على نحو لا إرادي ، وأكثر ما يبدو هذا الطابع اللاإرادي في الإلهام غريبا في حالتي الصورة والمجاز فمن الصعب معرفة ما كان رمزا أو مقارنة أو تشبيها؛ إذ تأتى الصورة اليك بمثابة التعبير الأوفـــر صحة وبساطة مباشرة ، ويبدو حقا أن الأشياء ذاتها تعرض نفسها عليك بمثابة حدود التشبيه .

ومن المفيد القول أن نيتشه يشـــــير إلى تجربته في الإلهام ، وهي تجـــربة تتعلّق بتصور جديد للعالم سوى التعبير الأصلي باسلوب المجاز عن كشف أهـــمّ ما فيه هو ، تلك التجربة شبه الصوفية المعروفة والتي وقعت لنيتشه قرب الصخرة ما بين سيلفا بلانا وسور لاى في وادى الانجادين ، حيث وافته فيه فكرة العود الأبدي خلف حدود الإنسان والزمان . وفي ذلك يقول نيتشه في : (هـــو ذا الإنسان والزمـــان) : " سأروى حكاية زرادشت . إن الفكرة الأساسية في الكتاب ، فكرة عودة الشبيه الأبدية ، هذه الصياغة السامية للإيجاب التي لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى صياغة أسمى منها ، ترجـــع إلى شهر أغسطس من عام 1881م .." (1) .

ومن الواضـــــح أن نيتشه يبدو قد شعر أن فكرته هذه من أهـــم أفكاره جميعا ، وهي فكرة مخيفة وعند ما يتحدث عنها كأنها وحي أو إلهام كما أخبر عنه من روى له نيتشه عن هذه الفكرة ، حيث يراها ويتصورها من أكثر الفروض العلمية القابلة للإثبات العلمي زاعما أنه قد توصّـــل إلى برهان أكيد لها ، إلا أننا نصف لحظة هبوط فكرة العود على نيتشه بأنها أوج رؤى الفيلسوف ؛ بل تعتبر أكثر من مجرد رؤيا أو تجربة وحي وإلهام ، فهذه الفكرة المخيفة ترتفـــع كل الأفكار كما ترتفع به إلى القمة المخيفة التي قد تنتظره بالسعادة أو بالجنون (2) .

وما لا يدعو إلى الشك أن نيتشه استطاع التوصل إلى تفسيرات مختلفة إلى العود الأبدي على أنه القانون الطبيعي ونقطة تحول تاريخي تمنحه الأبدية للإنســـــان ، وتعبر عن فلسفة نيتشه بأسرها ، بل هي مدار فلسفته وأعمق أفكاره جميعا ، بالرغم من أنها تفتقر إلى البناء التّصـــوري المحكم ، والمعالجة المنطقيـــة المحدودة ، ومع ذلك فهي تبدو وكأنها نبوءة معتمة أو ســـرّ مظلم يحاول الكشف عنه (3) ، ومن هنا يبدو التناقض في موقف نيتشه حـــول فكرة العود من خلال حديثه على أن هذه الفكرة من أثقل الأحمال ويصعب تحملها ، ومن ناحية أخـــرى تحدث عن العود على أنه الفكرة المنتصرة المؤديـــة إلى الشعور المـــرح الذي تحققه هذه الفكرة لمن يتحملونها .

مُشـــــكلة البحث :

اختلاف الكُتّاب بصدد فكرة العـــود الأبدي يبدو واضحا للأعيان فمنهم من يغض الطرف عنها على اعتبار أنها فرض خيالي ، أو مذهب شبه صوفي ، ومنهم من يـــرى إمكان إثباتها علميا – متفقا في ذلك مع نيتشه – ، وهناك من وجد أنها تكشف عن بدايات المرض الأخـــير ، وعن مرحلة غياب الوعي عند نيتشه ، أما البحث العلمي النزيه فيؤكد بعد الفكرة التامة عن الجـــنون والخيال ، وعلى الرغـــم من أن نيتشه يعلن أنه (معلم العود الأبدي) إلا أنه لم يقـــدم إلاّ بعض الإشارات للعود الأبدي في أعماله المنشـــورة تم تناولها بطريقة تمهيدية مثل: إشـارته إلـى الصلة بين فكـر الإنســـان الأعلـى والعود الأبـــدي .

أهميـــــة البحث :

إن أهمية هذا البحث تكمن في أن فكرة العود الأبدي عند نيتشه تكمن في وجود تصـــوّر جديد للعالم أي : أنـــه القانون الطبيعي ، ونقطة تحوّل فـــي التاريخ ، وفي أعلى درجات الحتمية ، والفعل الخلاّق الذي تمنحه الأبدية للإنسان ، تكمن في وجود بديل يعبر عن رغبة الإنسان الأكـيدة في هذا العالم بحيث تصبح الأبدية الجديدة تمجيدا لهذه الأرض بوصفها الوطـــن الحقيقي للإنسان .

منـــــهج البحث :

مـــن المعروف ان منهج البحث يسير وفق متطلبات الموضوع المطـــروح للدراسة ، ولذلك استخدمت المنهج الوصفـــي التحليلي .

تقسيمات البحث :

: تم تقسيم البحث إلى المباحث الآتيـــة :

المبحث الأول ـ أصـــل فكرة العـــود الأبـــدي:

جاءت فكـــرة العود الأبدي لنتشيه كحالة غير معهودة من حالات التّجلي الرائع، ويبدو أن هبـوط الفكرة قد حدث بغثة وبدون أي إعداد سابق لذلك ؛ مما جعلها تستولي على كل فكره ، وكانت نورا ساطعا يضيء الأشياء من جديد ويعطي للحياة قيما جديدة (4)، فالعود فكرة خطيرة استطاع نيتشه أن يكتشفها من جديد ، باعتبارها فكرة قديمة كانت موجودة من قبل في الفكر الهندي ، وقال بها (هيرقليطس) ، لكونها فكرة هندية بوذية الأصل ، فالهنود يعتبرون الوجـــود شرا ، مما جعلهم يصرفون كل همهم للتخلص من التناسخ والعـــود الدائم إلى الحياة ، ويعملون الصالحات كي يموتوا إلى غير رجعه ، وهكذا يتلاشـــون ويخمـــدون (5) ، وهي حالة يبلغها البوذي

وتتســـــم بخمود الشهوات الجسدية أو سعادة النفس في عالم الخلود ، ومن ثم بلوغ الراحة الأبدية ، كما تشير إلى انمحاء الذات أو هـــي السعادة القصوى التي تلتمس من طريق قتل شهوات النفس ونسيان الواقع الخارجـــي ، ويرى بعضهم أن حالة الجمود لا تعبر عن حالة الانمحاء وإنما هي حالة من الوجود الدائم أو حالة من السعادة الأبدية ، ورأى آخـــرون أنها تمثل التحـــرر من الألم ، فيعيش المرء حياة سالمة وينعم فيها بالكمال ورباطة الجأش .

أما البوذية فإنها تـــرى أن الموجودات هـــي عبارة عن سلسلة متتابعة من الأشياء أو الأحداث المتشابهة وما فكرة الثبات إلاّ فكرة وهمية ، ويبدو أنّ النظرية القائلة بحركة الأشياء المستمرة هي بمثابة حل وسط بين وجهتي النظر المتعارضتين عن الزمان وعن كونه وجودا أو عدما ، ويدرك الزّمان في البوذية على أنه حقيقة موضوعيـــة لامتناهية ، وغير قابلة للتجزئـــة ، وإذا ما أردنا قياسه ، فيمكن تجزئته إلى لحظات (6).

يتضّـــح لنا مما ســـبق أن فكرة العود الأبدي تاريخا طويلا في الفلسفة وما قبل الفلسفة باعتبار أن أصولها ترجع إلى عهد الأديان القديمة التي قالت بها على أساس أســطوري ليس له صلة بالعلم ، وبالرغم من ذلك نرى أن للفكرة أهمية كبيرة في الفلسفة اليونانية حيث ظهرت بوادرها في فلسفة (انكسمندر) حين قال بعدد لامتناه من العوالم واعتقد فيما أسماه : " بالفناء الكونـــــي " ، كما عـــرف نوعا من التعاقب بين أحوال مختلفة للعالم ، يقرب مما تقول به نظرية العود إلا أنه لا يوجد ما يثبت أن كل عالم ســـتتقرر فيه بدقة نفس حوادث العالم السابق كما تقول نظرية العود الأبدي عند نيتشه (7) ، وقد قال (انكسمندر) باللانهائي كعلة مادية وعنصر أول للأشـــياء ووصفه بأنه أبدي سرمدي يحـــوي كل الأكوان ، وبواسطته تنشأ الأشياء وإليه تعود مـــرة أخـــرى على النحو الذي يجب أن يكون ، وذلك لأنها تعوض وتصلح ما يكون قد صدر عن بعضها تجاه البعض الآخـــر من ظلم تبعا لمقتضيات الزمان ، وغالبا ما نرى (انكسمندر) يقول بعدد لا نهائي من الأكوان تبتعد عن بعضها بأبعاد شاسعة تحدث وتفنى ويولد عدد غيرها .، وعلى هذا النحـــو يتم التطور من اللاتجانس إلى الوجود المتحيز المحدد في مجال الأحياء (8) ، ومن المفيد القول أن الفكرة ازدادت وضوحا عند (هـيرقليطس) حيث ذهب إلى أن هذا العالم كان منذ الأزل وهو كائن وسوف يكون وهو يهتـــم بوصف عودة الأشياء إلى النار أكثر من اهتمامه بانفصالها عنه ، ويفسِّـــر بعضـــــهم ذلك بأنه كان أكثر عناية بالتدمير من البناء ، وقد اقترن بهذه الفكرة فكرة تجدد العالم على فترات كبيرة من الزمان ، وهـــي

فكرة العود الأبدي ، وقد استرعى التغير المستمر والسيلان الدائم في الطبيعة نظر (هيرقليطس) ، واعتبره الحقيقة الوحيدة الدائمة مما جعل القدماء يردّدون عبارته التي يذكر فيها أن كل شـــــيء في تغيّر ولا شيء ثابت ، والنار التي هي مبدأ كل شيء يجـــــرى فيها هذا التغير الدائم ، ومن ثم فهي رمز لحقيقة الوجود ، ولا يجرى التغير بطريقة عشوائية ، وإنما يكشف عن قانون كوني وائتلاف خفي (9) .

أما الفيثاغوريـــــون ، فظهـــرت فكـــرة العود الأبدي لديهم بحيث تتماثل فيه كل التفاصيل الدقيقة للعالم ، فـــرأوْا الزّمـــان يعـــود كما ســـار مـــن قبل ، فتتكرر كل حـــوادث العالم مثل ما تتكرر فصول الســـنة بعد استكمال دورتها (10) ، والفيثاغوريـــة تميّـزت بأنها حركة إصلاح وتجديد ديونيز يوس السرية ، مما جعلها تحتفظ بمبدأ استمرار الحياة في دورات يتعاقب فيها الموت والحياة (11) . وتتوالى الدورات في (عود أبدي) تتكر فيه ما سموه بالسنة الكبرى ، وتتكرر فيه نفس الأحداث ، ولقد نظمت هذه الدورات ودبرت بحسب خطة مرسومة وعناية إلهية وهي تجرى بقانون ضروي وحتمي (12) . ومن المفيد القول لم يكن العود عند فلاسفة اليونان الا نظرية ميتافيزيقية وحسب ، ولم يحاول احد منهم أن يجعل منه مركزا لفهم شامل للعالم من الناحية الأخلاقية والدينية (13) ، إلا أن نيتشه رفض تفسير العود على انه تناسخ للأرواح استنادا إلى أن هذا التناسخ ((دار ونية معكوسة)) ، ويؤكد هذا الرفض الحاجة على أهمية كلمة ((الشبيه)) كما انه وجد في فكرة العود خير وسيلة للتوفيق بين تفسير الصراع الفكري القديم بين هيرقليطس وبارمنيدس ، وتركزت جهود الميتافيزيقا منذ ذلك الحين في بحث مشكلة الوجود والصيرورة (14).

المبحث الثاني ـ مضمون فكرة العـــود الأبدي عند نيتشه :

أشار نيتشه بصـــــورة متكررة إلى صعوبة فكرته عن العود الأبدي وأهميتها بين أفكاره الأخـــرى ، وتكمن خطـــورة هذه الفكرة في أنها تمثل الوجـــه المقابل للمذهب العدمي الذي يزعـــم بأنه ما من شيء حقيقي وأن كل شيء بلا جـــدوى ، كما ترجع صعوبة هذه الفكرة – مثلها في ذلك مثل أي فكر أصيل صادق – إلا أنها تتضمن الكل . ومن هنا يبدو أن كل الأحوال التي مر بها العالم قد مـــرّ بها من قبل عددا لانهائيا من المرات .... " أيها الإنسان : أن حياتك كالساعة الرملية ستعود من جديد دائما " (15) . فجميع الأشياء تعود أبدآ ، ونحن معها عائدون ، ونحن قد وجدنا من قبل مرارا لا عدد لها ومعنا جميع الأشياء - أيضا- ، ويقول نيتشه - أيضا - في زرادشت : " ....شبكة

العلل الدائرة بي ستعود يوما فتخلقني من جديد فما أنا إلا جـــزء من علل العود الأبدي لكل الأشياء " (16) .

ومن الملاحظ أن الوجود الذي يـــراه نيتشه ليس صيرورة مستمرة لا نهائية ، وإنما تأتـــي فترة يسميها باسم (السنة الكبرى للصيرورة) ، وعندما تنتهي دورة الصيرورة لتبدأ دورة جديدة وهكذا ، فزمان الوجـــود مقسم إلى دورات ، وكل دورة تكرار تام للوحدة السابقة عليها ، كما توجد هوية تامة بين الواحدة والأخرى ، فكان صور الوجود بأسرها تتكرر بلا انقطاع في الزمان اللانهائي ، وهذا التكرار يتناول كل التفاصيل والجزئيات (17) . أما عن الدقيقة الكبرى من الزمان فهي تلك الدقيقة الضرورية لكي توجد من جديد كل الأحوال التي أوجدت الإنسان في دورة الكون ، وحينئذ سيلقى من جديد كل الم وكل سرور ، وكل صديق وكل عدو ، وكل أمل وكل خطأ ، وسيجد نظام الأشياء كما هو عليه الآن ، فهنالك في كل دورة من دورات الوجود الإنساني ساعة تقوم فيها عند الفرد الواحد وعند عدد كبير ثم عند الجميع ، أكبر وأقوى فكرة ، فكرة العود الأبدى لكل الأشياء ، وهذه الساعة هي بالنسبة للإنسانية ساعة الظهيرة العظمى (18) .

المبحث الثالث ــ الإثبات العلمـــي لفكـــرة العـــود الأبدي :

رغب نيتشه في تكريس حياته لمدة عشـــر سنوات لغرض دراسة العلوم الطبيعية ليثبت فكـــرة العود الأبدي إثباتا علميا ، ولكن حدث له ما يمنعه ذلك حيث إن اعتلال صحته كانت سببا في عدم تمكّنه من ذلك ، إلا أنه في سنواته الأخيرة عمل على إيجاد دعامة علمية لفكرته فلا تعود مجرد فرض ميتافيزيقي كما كانت عند فلاسفة اليونان (14) ، فهذا الإثبات العلمي يقوم على نظريات في علم الطبيعة ، وفي ذلك يقول نيتشه : إن مجموع القوى الموجودة في الكون هو ثابت ومحدد ، لأن المسألة لا تتعدى ثلاثة فروض هـــــي :

1- إما أن يكون هذا المجموع في زيادة مستمرة .

2- وإما أن يكون في نقصان مستمر .

3- أو يكون ثابتا .

ومن هنا لم يبـــق إلا التسليم بأن مجموع القوى الكونية ثابت ومحدود ومتناه ، ومادام متناهيا فان مجموع الأحوال والتغيرات والتركيبات والتطورات التي تحدث في هذه القوى – ولو أنه هائل ولا يمكن تقديره عمليا – لابد أن يكون متناهيا ومحدودا ،

ولما كان الزمان لانهائيا غير محدود ، إذن لابد أن تأتى لحظه من لحظاته – مهما كان طول المدة السابقة عليها – يعود فيها تركيب سبق وجوده من قبل .

ولما كان قانون العلية بمعنى : تسلسل الحوادث وارتباط الظواهر وتتابعها الواحدة بعد الأخـــرى – يقضى بأن يجـر هذا التركيب وراءه التراكيب المرتبطة به وهكذا ...

فإن مجموع الظواهـــر سيتكرر من جديد بنفس النظام والطريقة والمقدار الذي وجـــد فيه في الدورة السابقة على هـــذه الدورة ، وهكذا تأتى دائما دورات جديدة ولا نهائية مادام الزمان اللانهائي مكونا من دورات ، ولكل دورة زمانها المحدود ، وكل دورة مماثلة للدورة الأخـــرى تمام المماثلة (20) .

وما يمكن ملاحظته من كل ذلك أن أولى القواعد العلمية التي ترتكـــز عليها فكرة العود الأبدي في رأي نيتشه هي القول بأن مدى القوى الكونية متناه ومحدود ، وأن عدد مواقـــع هذه القوة وتغيراتها وتركيباتها محدود ، كما أن تصور العالم على أنه قوة محدودة هو الذي يميز الروح العلمية من الروح الدينية في رأى نيتشه ، لأن القوة هي دائما ، ولا ينبغي ان تكون لامتناهية بالضرورة ، وهي فعالة فعلا أبديا ؛ ولكن طاقتها محدودة ، فلا تستطيع أن تستمر في خلق حالات جديدة إلى مالا نهاية له ، وإذا اعتبرنا أن الشرط العلمي الأول لتحقيق العود الأبدي هو أن تكون القوى الكونية متناهية ، فالشرط الثاني ينبغي أن يكون الزمان لا متناهيا ، أي : أن تظل هذه القوة تمارس فعلها بلا انقطاع ، وإذا كان الزمان متناهيا ، إذن لابد أن تستنفد الإمكانيات التي تكون متاحة لهذه القوة المحدودة ، وبذلك تأتى حالة تشابه حالة قد تكررت من قبل ، وتتلو كل الحوادث كما وقعت من قبل ، ويكون الكون قد أتم دوره من دوراته ، وتظل هذه الدورات تتكرر إلى الأبد خلال الزمان اللامتناهى (21) .

ومن الملاحظ أن نيتشه قد حاول العثور على برهان علمي لفكرة العود إلا أن الدلالة العميقة للفكرة تكمن في جانبها الميتافيزيقي وليس في جانبها العلمي .

المبحث الرابـع ــ فكرة العود الأبدي ومواءمتها بين الحية والضرورة :

ذهب البعض إلى إن فكرة العود هي النتيجة الفلسفية الكبرى للمذهب الآلى ؛ لأن العلم في رأي هذا المذهب يمر بحالات لا متناهية ، ولكن لفكرة العود من وجهة نظر المذهب الآلى مزايا منها : أنها تفوق في بساطتها كل نظام يصوّر العالم على أنه يســـير في اتجاه واحد نحو غاية محدده ، وأن فيها قدرا كبيرا من الاستقرار والثبات وكما أنها لا تشير إلى أي مبدأ يخرج عن الطبيعة ذاتها (22) . وعلى الرغم من هذه المزايا التي يدعيها المذهب الآلي لفكرة العود ، يرى نيتشه أن التصـــور الجديد الذي

يضعه للعالم من خلال فكرة العود الأبدي ليس تصورا ميكانيكيا ، بسبب نقص النظرية الميكانيكية . ومن هنا يتضح أن فكرة العود الأبدي لا تتعارض مع الحرية والإبداع ، وفهمها على أنها آلية تنسجم مع المذهب الآلي ما هو إلا فهم قاصر لطبيعة الفكرة التي أراد نيتشه أن يعبّـــر من خلالها عن أقصى طاقات الإنسان الأعلى في الإبداع ، ومن ثم تكون ذات أثـــر فعال على سلوك الإنسان .

نستنتج من كل ذلك أن كل من يعرف حقيقة العود يعرف كيف يتخلص من الأغلال التي تقيده بالموجودات ، وكيف يرتفع بنفسه فوق كل ما يدخل في نطاق العالم من أشياء وموجودات ، وهو لا يرتفع فوقها إلا ليعود إليها عودة أصيلة ، ولا يتجاوزها إلى العالم الرحب الشامل إلا لكي يجدها من جديد ، وبذلك يتلاشى الفرق بين الإرادة والضرورة ، لأن ما تريده الإرادة والضرورة عن حرية لا بد أن يأتي في دورة العود الأبدي ، لكي تكمن الضرورة في الحرية وتكمن الحرية في الضرورة (23) .

ومن هنا نجد أن نيتشه يؤكد أن العود الأبدي لا يقضي على الحرية ، بل يخلصها من الحاجز الذي كان حتى الآن يحد منها ، وهو حتمية الماضي ، ولكن إذا كان كل منقض هو في الوقت ذاته كل ما يجب أن يأتي ، فإن النفس تمارس حريتها ، وينفتح درب الإبداع كما لم ينفتـــح من قبل أمام الإنسان (24) .

وبذلك يفسّـــر القلق الذي ينتاب الإنسان حينما يـــرى العود الأبدي بمثابة جوهر الزمان في العالم ، فينتج عن توقعه أن كل ما قدر عائد ثانية ، وأن مصير الإنسان يعبر عن شقاء يتجدد باستمرار ، ولكن المحافظة إرادة أن نريد حتى إزاء إعادة كل وجود ، إنما يؤلف قمة المواءمة بين الحرية والضرورة (25) .ويشير (هايدجـــر) إلى مشكلة الحرية والضرورة في فكرة العود الأبدي ، لأنه إذا ما كان كل حدث ما هو إلا تكرار لما حدث في الماضي ، فان كل شيء محدد مسبقا ومتضمنا لأفعال الإرادة الفردية ، ويرى انه إذا قمنا بتفسير العود حرفيا ، فلن يكون ثمة مجال لظهور الإنسان الأعلى وفي ذلك لم يقصد نيتشه تفسير العود حرفيا كضرورة منطقية ، إلا أنه يترك الحكم على مسالة الحرية والضرورة في فكرة العود مطلقا ، ويبدو أن الصورة الكامنة في فكرة العود الأبدي هي التي ترغـــم الإنسان على أن يتخذ قرارا حرا ، وقد تأتي حرية القرار هذه ثمرة للمعركة المخيفة ، كما يتحقق انتصار حرية الإرادة في فكرة حب المصير ، فالإنسان نفسه يعتبر جزء من مصيره ويعتبر حبه عن لمصيره عن أوج المواءمة بين الحرية والضـــرورة في فكرة العود الأبدي .

المبحث الخامس ـ فكرة العود الأبدي في مؤلفات نيتشه :

1- فـــــي " الحكمة المرحـــــة " : ورد في نص شهير لنيتشة في مؤلفـــه (الحكمة المرحة) ((.... يرجع الفزع والرعب في فكرة العود الأبدي ظاهريا إلى ذلك التكرار اللامتناهي الذي لا يسمح بأي تجدد نهائي في الكون – أي : لن تسمح الرتابة الأبدية بأدنى إمكانية لحدوث أي شيء جديد (26) ، كما أنها تتضمن عودة الإنسان الصغير والتافه من جديد وبصورة أبدية ، وأسفاه إن الإنسان سيعود ، سيعود الإنسان الصغير دورا فدورا إلى الأبد (27) ، ومن هنا يبدو أن القاعدة الأخلاقية الأساسية في العود هي : (عش بحيث ترغب في الحياة ثانية) إلا أن نيتشه قد استبدلها بقاعدة (كانط) الأخلاقيـــــة (افعل بحيث تصلح قاعدة سلوكك لتكون قانونا عاما يســـرى على الجميع) ، وإذا كانت القاعدتان تشتركان في هدف واحد وهو إلـــزام الفرد بمسؤولية فعله ، فإنّ (كانط) يحـــقق هذا الهدف عندما يشعر الفرد بأن تصرفه قد أصبح قاعدة عامة للكل البشر ، ومن ثم يتوخى الحذر ، ويتجنب الخطأ في سلوكه ، أما نيتشه فيحقق هذا الهدف على نحو مخالف ، فيدعو الفرد إلى الفعل – على أفضل نحو ممكن – لأنه سيظل يفعل نفس الفعل مرات لانهائية (28) .

2- فـــــي (إرادة القـــــوة) : يعالج نيتشه في أحد كتبه الموسوم بإرادة القـــوّة على أنها اصطفاء للبشر ، باعتبارها تمثل الفكرة الاصطفائية الكبرى التي تشجب الأمم الضعيفة التي ليس في مقدورها احتمالها ، وتضيع في مواقع السلطة الأمم القوية القادرة عليها ، ومن ثم تصبح فكرة العود الأبدي قوة عظيمة لها ثقلها في الوجود (29) ، وفي هذا الشأن يقول نيتشه : ((... كل شيء يظهـــر ويعود بصورة أبدية ... فكرة العود كمبدأ اصطفائي لصالح القوة " (30)، وتكمن أهمية العود بالنسبة للحياة وقوتها الاصطفائية في أن كل وقت يمضي وكل ما ينقضي ليس زوالا وحيدا إلا في الظاهر ، أو في الواقع فكل زمان ينقضي إنما هـــو (أبدي) ، ويتكـــرر على الدوام ، ولما كان العالم حاضرا في جميع الأشياء وليس وعاء تقوم فيه جميع الاشياء، لذا كان لجميع الاشياء في صفتها الزمانية المتناهية (31) ، على أن أهم ما يتعرض له في مؤلفه (إرادة القـــوة) هو وصف للعلاقة بين العنصرين إرادة القوة والعود الأبدي ، واتحادهما باعتبارهما لعبا كونيا ينقسم إلـــى مواقف متعارضة ، ويعـــود فيتشكل انطلاقا من هذا الانقسام ، فما أدركه نيتشـــه من مفهوم الحياة الغامض يدركه هنا إدراكا واضحا على أنه العالم واللعب العالمي للوجود (32) .، وما نلاحظه إن نيتشه استطاع التوصل إلى تصور جديد للعالم يقوم على فكرة العود الأبدي ، حيث اعتبر إن العالم بمثابة جسم

يحتوى كل شيء ، وفيه تأتى الأشياء جميعها وتذهب ، كما تتم فيه كل الحركات ، وهو قائم إلى الأبد وسط هذا التغير على غـــرار الزمان نفسه الذي يبقى على الرغم من مـــرور الأحداث الزمانية، وليس للعالم معنى أو هدف ، لأن كل معنى قائم فيه ، كما أن جميع الأهداف قائمة داخل العالم ، فالعالم نفسه واقع خلف حدود الهدف والمعنى ، وكذلك الخير والشـــرّ ، بمقدار ما يحـــوي في ذاته جميع المتناقضات (33) .

المبحث السادس ـ تحليل المضمون الميتافيزيقي لعبارة العود الأبدي :

أشـــار نيتشه في العديد من المرات إلى صعوبة فكرته عن العود الأبدي وأهميتها بين أفكاره الأخـــرى ، وتكمن خطورة هذه الفكرة في أنها تمثل الإمكانية المقابلة للمذهب العدمي القائل بأنه ما من شيء حقيقي ، وكل شيء بلا جـــدوى كما ترجع صعوبة الفكرة الى أنها تتضمن الكل وللفكرة رصيد زماني ضئيل في تاريخ الفلسفة الغربية لوجود اختلافا بينا في الرأي حول تطبيقات العود الأبدي . أما عن كلمة (أبدي) التي تعد أصعب مفهوم في فكرة العود ، فان تلك الصعوبة ترجع إلى سببين

الأول : أن مفهوم الأبدية من أكثر المفاهيم التي أسئ فهمها في الفكر الغربي.

ثانيا : أن الطريقة التى فهم بها نيتشه هذه الفكرة تعارض التراث الغربي ، فالأبدية هي التصور الميتافيزيقى التقليدي الوحيد الذي لم يهاجمه نيتشه ولم يرفضه .

ما تم ملاحظته هنا هو أن المعنى الأساسي الذي تقوم عليه فكرة العود الأبدي هو أنه لا توجد نهاية ، وهذا الافتقار إلى النهاية يشمل هـــذا العالم وكل علو ممكن ، حيث لا يوجد أساس ثابت نهائي للعالم يعلو على هذا العالم ، كما أن عـــدم وجود نهاية يتضمن إنكار الغائية في العالم ، وإذا كانت إرادة القوة تحتاج إلى أهداف زمنية كي تحقق مزيدا من القوة ، فان هذه الأهداف ليست نهائية على وجه الإطلاق (34).

علاقة فكرة العود الأبدي بالأفكار الأساسية عند نيتشه :

حيث يعلن في بادئ الأمـــر عن الإنسان الأعلى كضرورة لازمة ضياع الإنسان ، أما عن إرادة القـــوة فهي تؤلف طبيعة الموجود ، بمعنـــــــى : أن كل موجود إرادة قـــوة طالما هو واقـــــع في الزمان بالنسبة للإنسان ؛ إذ لا يمكن قلب المثالية إلا في اللحظة التي يؤخذ فيها العنصر الفائق على الإنسان على انه بعد من أبعاد ولا تستطـــيع أن تتراجع ، هناك إذن علاقة فريـــده بين أفكار نيتشه الأساسية (35) .وليست أفكار الإنسان الأعلى ، وإرادته ، وإرادة القـــوة ، والعلو بالذات ، وحب المصير، والعود الأبدي والتوكيد الأقصى على قيمة الحياة إلا رمـــوزا قهـر بها نيتشه العدمية ، وقدم من خلالها الحلّ للأزمـــة ، ورغم كل ذلك فقد احتلت فكرة العود المكانة الرئيسة

في فلسفة نيتشه ، حيث تمكّن من الربط بينها وبين نظرياته في الأخـــــلاق ونقده الدينـــــي .

الخاتـــــــمة :

في نهاية هذا البحث خلُص البحث إلى أهـــــم النقاط ، وهي:

1- اتضح لنا من سياق البحث أن نيتشه لا ينتمي إلى فئة الفلاســـفة الذين يعكفون على تأمل المجردات ويبتعدون عن الحياة ، لذا فان أعمق وصف لمذهب نيتشه يؤكد أنه فيلسوف حياة .

2- كما أن فلسفته كما هو واضـــح لنا هي فلسفة نامية مع الحـــياة ، تعلى من شأن قيمة الحياة وتتخذ لها مثلا أعلى حسب المصير ، وليست الحـــروب التي أشعلها نيتشه على المسيحية أو الإنسان أو العالم إلا قناعا يخفـــي من ورائه العلو بقيمة هذه الحياة وهذا العالم ، فكان فكره فكرا غنيا بالصور الحية التي تليق بفيلسوف الحياة ،

4- استطاع نيتشه أن يحدث انقلابا في مجال القيم وحولها من المنطق والجدل العقلي إلى الحياة وإرادة المزيد من الحياة .

5- فكـــرة العود الأبدي عند نيتشه تعلو على كل الأفكار ، فلقد صدرت عن الوحي والإلهام ، وهبطت عليه فجأة ، فاستولت على كل فكره ، وكانت نورا يضئ الأشياء من جديد ويضفى على الحياة قيما جديدة .

6- فكرة العود الأبدي عند نيتشه هـــي دين الأديان فهي تعبر عن توقع نيتشه لمجئ دين جديد أو تصـــور جديد للخلاص .

7- العـــود يحل محل الميتافيزيقا والدّين بالمعنى التقليدي لهما .

الهوامـــــــش :

1- نيتشه : هو ذا الإنسان ، ص115.
2- عبد الغفار مكاري : مدرسة الحكمة – مقال العدد الابدي ، ص198.
3- المرجع السابق ، ص208 .
4- عبد الرحمن بدوي : نيتشه ، 248-250 .
5- بولس سلامة : الصراع في الوجود ، دار المعارف ، 1954م ، ص 209.
6- هذا هو وجه الاختلاف بين نيتشه وجميع من سبقوه .
7- فؤاد زكريا : نيتشه ، ص 136 .
8- أميرة حلمي مطر : الفلسفة عند اليونان ، 50 -52 .
9- المرجع السابق ، 61-65
10- فؤاد زكريا : نيتشه ، مرجع سابق ، ص 137.
11- أميرة حلمي مطر : الفلسفة عند اليونان ، مرجع سابق ، ص 171 .
12- المرجع السابق ، ص 413 .

13- فؤاد زكريا : نيتشه ، مرجع سابق ، ص 138 .
14- المرجع السابق ، ص 141 .
15- عبد الرحمن بدوي : نيتشه ، مرجع سابق ، ص 249 .
16- نيتشة : هكذا تكلم زاردشت ، ج3 ، ص 252 .
17- عبد الرحمن بدوي : نيتشه ، مرجع سابق ، ص 249 .
18- المرجع السابق ، ص 130 .
19- فؤاد زكريا : نيتشه ، مرجع سابق ، ص 139 .
20- عبد الرحمن بدوي : نيتشه ، مرجع سابق ، ص 250-253 .
21- فؤاد زكريا : نيتشه ، مرجع سابق ، ص 139-140 .
22- فؤاد زكريا : نيتشه ، المرجع السابق ، ص 140 .
23-عبد الغفار مكاري : مدرسة الحكمة ، مرجع سابق ، ص 210-211 .
24 - اويجن فنك : فلسفة نيتشه ، ص 124 .
25- المرجع السابق ، ص 116 .
26- ربجبس جوليفيه : المذاهب الوجودية ، ص 61 .
27- نيتشه : هكذا تكلم زاردشت ، مرجع سابق ، ص 251 .
28- فؤاد زكريا : نيتشه ، مرجع سابق ، ص 143-144 .
29- اويجن فنك : فلسفة نيتشه ، ص 210 .
30- نيتشه : هكذا تكلم زاردشت ، مرجع سابق ، ص 545 .
31- اويجن فنك : فلسفة نيتشه ، مرجع سابق ، ص 211.
32- المرجع السابق ، نفس الصفحة .
33- المرجع السابق ، ص 212 .
34- اويجن فنك : فلسفة نيتشه ، مرجع سابق ، ص 117 .
35- المرجع السابق ، ص 96-97 .